اللواء ١٠ آذار ٢٠١٧

في عيد المعلم

المعلم عظيم في عطائه، والعظيم في عطائه، حين هو، في النهارين، وما بينهما أيضاً، سهراً ورهقاً يحمل هموم الدنيا على منكبيه، ويمضي بـ«أولاده» شامخاً، مبتسماً، ووراء البسمة مسؤولية وطن، ينهض به، ولو بعد حين، جبّاراً، وفي بعض الجبروت ينطوي عبء تاريخ لا يرحم، يُدرك العظيم وحده ثقله والتبعات. إذاً، عبثاً ما نحاول، في تادية الأمانات ان نوفي الأمانات حقها، وأن نضع في كفتي الميزان، تقديراً لتقدير، واخلاصاً لاخلاص، فالذي من قلبه يمنح دماً زكياً مفادياً، لآلاء، يسع الكون في هباته، لا يُجارى، لا يُبارى، لا يُوازى، في ما وهب، وبذل، وانماء، واضاء، مهما نبلغ، في التقابل، أن نهب من روح ومال، لأن الأشياء، هنا تهون في راحتنا، هناءتنا، طمانينتنا، إزاء ما بذل هو من جهد كبير، ولا قياس، لتوفير هذه الراحة والهناءة والطمانينة لنا.

هكذا اقدار المعلمين المخلصين الأوفياء في التضحية تكون، هكذا ينبثق، لا ندري كيف، من أصلاب الرجال، وارحام النساء ليقود الرجال واخواتهم، سلماً وحرباً، إلى المعالي، ثم لا يكون له هو العظيم، سوى اكليل الغار، انضفر، في معاناته، اكليل شوك، بحسه، وتحمله، يصبر فيه، يصابر عليه، دون أن نستشعر نحن، مهما يبلغ وفاؤنا، قربنا منه، بعدنا عنه، ماذا يعني هذا الاقتدار، غاراً وناراً، بهما يتوج الهام، والهام، من فرط تجلد، قد نضج به التجلد، ومن فرط مواجهة، قد الوت المواجهة بنفسها، تحنانا، واشفاقاً، وروعاً، وذعرا، أمام ذعر النائبات، تتوالى، تتصامى تندفع شديدة، ترتد حسيرة، موجة منها الرذاذ، وصخرة منها الثبات، والزبد، جفاء ياتي وجفاء يذهب، وبقى الذي ينفع الناس، لأنه مكتوب انه إلى بقاء، ما دام الذي قبل المزال من أجله إلى بقاء أيضاً.

المعلم يكابد دوماً، فهل يعرف، أولئك الذين ينعمون بفيء هذه المكابدة مداها وأبعادها؟ الجواب ليس كلمة تُقال، وليس، كذلك اغضاءة تفكير، يزعمون بعدها انهم يعرفون لا، انهم لا يعرفون، حتى مع المعايشة اليومية. الاستقراء الخارجي، يحيل على استشفاف خارجي، قوامه النظرة العابرة، أما الاستقراء الداخلي، فانه يندرج في الشغاف، حيث لا بوح، لأن منه الشكاة، والمعلم، في العرف السائد، لا يشكو، ولا ينبغي، - من مكابدة التعليم والتربية وليس من مكابدة علاقات ما بزملاء أو اداريين كل منهم «سيّد» في حقله الخاص! - وتلك بداية التجربة الصعبة، هذه التي أوصى أحد المعلمين القدامى ابنه في شانها قائلاً: إذا قدّر وصار لك الأمر من بعدي، فإنك ستعرف ما معنى تبعات أن توجه أجيالاً عاقلة حكيمة شطر مستقبل استشرافي زاهر.

الكلام، إذا، ينصرف إلى المعلم العاقل والحكيم، وليس إلى أي «مرشد» لأية جماعة. العقل، الحكمة، البصيرة، النزاهة، تلك هي الصفات والمؤهلات التي لا بدّ من أن تتوفر في المعلم الفذ، المنذور لتوجيه فذ، وعليه اتكلم كاشفاً بعض ما يُعاني في صبر ومصابرة، تتقاضاه تفكيراً موصولاً، وعملاً موصولاً، ومفاداة موصولة، وحرمانا موصولاً، حتى إن تلك التي أشار إليها الحديث الشريف في قوله «إن لنفسك عليك حقاً»، فالعظيم العظيم في المجتمع، هو من ينكر ذاته ويجور على ذاته في ممارسة يومية لشؤونه ومشاغله وهمومه، حين يقوم هذا العظيم مقام الراعي لرعيته، والأب لابنائه، والقائد لقواته، والسائس لأمته.

هل عليّ، في جملة استدراكية، أن اقول ان الكلام، في هذا المجال، ينصبّ على الكيف وليس على الكم؟ ان الكم، في ما بين أيدينا، ولو مستورداً ونظري



المنحي في الغالب، إلى وفرة، والكيف إلى ندرة، تعويلنا هذا على إبداعية المعلم لأن كل ثورة حقة تبدأ به ولو بعد حين المعلم عصفور في رحب السماء وسنان رمح كل عصر. المعلم أولاً مبدع، والمبدع وحده هو من يتنبأ فتمسي توجيهاته وحكمه فوق كل حكم تقود الشعب شيئاً فشيئاً إلى الازدهار والتقدم الحقيقيين.

ويعظم دور المعلم في مجتمعنا، المعلم في الغرب عموماً، لديه الدول القوية العصرية وركائزها، وعليها يرتكز، وعلى تراتبية مؤسساتها يعتمد، فيكون، نتيجة ذلك، لديه وقت للراحة والمزيد من المطالعة والتسلية على السواء، ولإعطاء النفس حقها المشروع، الضروري في التفرّغ لها، وايلاء متوجباتها والرفاء ما يستحقان.

أن كفة الميزان كل تاريخ مصيرها، مهما طال الزمن أو تطاول، إلى كثير من الاستقامة والتوازن، وإلى رجحان في كفة الشعوب، وشيلان في كفة اعدائها، ودور المعلم في تحقيق ذلك، أن يكون، عبر اسلوبه الهادئ، بدء التقدم المرتقب، لا أن يكون الختام، لبدء يشرع به غيره، ويبقى هو في القعدة، عاجزاً عن الاستلهام حين الإلهام يناديه، وبعيداً من أطلالة الركب، حين الركب يغذ السير وهو يلهث في المؤخرة زلماً بين الأزلام! وكل عام والمعلم (فعلاً) بخير.

د. جهاد نعمان